رحلتي إلى إيكْسْ أُونْ بْرُوفانْسْ في 2013 (مركز أرشيف ما وراء البحار).

أ.د عبد القادر خليفي*

مقدمـــة: الرحلة حركة وتنقل يقوم بها الشخص أو الأشخاص من مكان إلى آخر لأسباب مختلفة، قد تكون نحو الأماكن المقدسة لأداء فروض دينية، أو بهدف التجارة أو بهدف العلم سواء للدراسة أو التدريس، وقد تكون بهدف المتعة والترويح عن النفس. وهي بذلك حركة ومخالطة للناس والأقوام، وتَعَرّف على المناطق ووصف الثقافات الإنسانية ورصد بعض الجوانب من حياة الناس اليومية في مجتمع ما في زمن معين. يحصل بواسطتها الرحالة على مادة ثرية من المعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن أحوال البلدان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كطبائع الناس ومعالم حضارتهم وخصوصياتهم. وهي "تمثل مظهرا من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور.."[1].

وفي هذا المجال سنحاول تسجيل ملاحظاتنا عن زيارتنا لمدينتي مرسيليا وإيكس-أون-بوفانس، في جنوبي فرنسا، عندما ذهبنا في إطار التربص القصير المدى، الذي يستفيد منه الأساتذة الجامعيون في الجزائر من أجل إتمام بحوثهم أو لتجديد معلوماتهم خارج الوطن.

وقد حفزني على تنفيذ هذه الفكرة مشاركتي في شهر أبريل من السنة نفسها **(2013)** في الندوة الدولية العلمية: "الرحلات والبعثات وانتقال الخبرات والمعارف حول البحر الأبيض المتوسط من القرن **18** إلى القرن **20**"، المنعقدة في جامعة تِطوان بالمغرب الأقصى يومي **27** و**28** مارس **2013**، التي نظمتها فرقة البحث في ثقافات المجتمعات المتوسطية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بالتعاون مع مجلة سيميائيات، بمدينة تِطْوان نفسها، التي شاركْت فيها بمداخلة عنوانها: "قراءة في سوائح وارتسامات عابر سبيل لمحمد الصالح رمضان." فقد بقيت مفرداتها في ذهني وأنا في مدينة مرسيليا، خاصة وأن مؤلف تلك الرحلة زار بلدانا أوربية سنة **1955**، وكانت مرسيليا أول بلد أوربي تطؤه قدماه في هذه القارة.

ولكن ما هي الظروف التي مهدت لي الطريق لهذه الزيارة؟ كنت قد استفدت من عدة تربصات في بعض البلدان العربية مشرقا ومغربا، ولم أزر فرنسا، التي تضم مراكز ومعاهد للوثائق

*- أستاذ التعليم العالي- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة وهران.

التاريخية حول تاريخنا. فقد نقل الفرنسيون، بعد خروجهم من الجزائر مرغمين سنة **1962**، تاريخهم في الجزائر، وهو تاريخ مشترك مع الجزائريين، رغم أنه تاريخ استعمار، لكنه يوضح العلاقة بين الفئتين: الفرنسية المستغِلة من جهة، والجزائرية المستعمَرة من جهة ثانية. كما أخذوا كل ما وجدوه في المكتبات العامة والخاصة من تراث علمي وتاريخي، استولوا عليه بعد انتصارهم على السلطة العثمانية التي كانت تحكم الجزائر حتى سنة **1830**.

لهذا قررت زيارة بعض هذه المراكز للاستفادة منها من أجل بحوث مستقبلية في تاريخ الجزائر المعاصر. ومن أجل ذلك كان علي الحصول على منحة لزيارة المكان؛ فراسلت معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي **(IREMAM)** في مدينة إيكس- أون- بروفانس، وتوصلت منه على رسالة الاستقبال التي تعتبر شرطا للحصول على منحة التربص.

وبعد أن ظهر اسمي ضمن المستفيدين من هذا النوع من المنح، بدأت القيام بإجراءات الحصول على تأشيرة الدخول إلى فرنسا. ومن أجل ذلك أعددت ملفا خاصا، قدمته للقنصلية الفرنسية بمدينة وهران، وتمكنت من الحصول على التأشيرة بعد مرور شهر كامل من يوم دفع ملف طلب التأشيرة.[2] وقد كُلفت وكالة يرمز لها بالحروف التالية: **(UPS)** [3] بتسليم التأشيرة بعد أن تبيع للراغب في السفر غلافا سميكا مقابل ألف دينار، يوضع فيه جواز السفر عندما يعاد إليه من القنصلية وعليه التأشيرة.

لكن السؤال المطروح هو ما هو المقابل لهذه الألف دينار التي تحصل عليها هذه المؤسسة؟ أليس خدمة المسافر وتسهيل الحصول على التأشيرة؟ هذا هو المفروض، لكن الواقع يثبت عكس ذلك. فالمؤسسة لا تقوم سوى ببيع الظرف المطلوب إجباريا في ملف طلب التأشيرة، وفي مرحلة ثانية تقوم بفتح دفتر يمضي فيه المسافر باستلام جواز السفر وعليه التأشيرة. وهذا بعد شد ومد وطول انتظار من الراغبين في السفر. إن أقل ما يمكن أن تقوم به المؤسسة هو إعلام المعني هاتفيا بوصول التأشيرة. ودليلنا على عدم قيام المؤسسة بذلك هو انتظار البعض من الناس أكثر من شهرين، وهم يترددون عليها في مقرها الكائن إلى جوار القنصلية الفرنسية بوهران، وبخاصة إذا علمنا أن سكان الغرب الجزائري كله حتى الجنوب الغربي، يقدمون طلباتهم إلى هذه القنصلية.[4]

وعن فكرة كتابة الرحلة هذه، يمكن العودة بها إلى إحدى الليالي التي قضيتها في مرسيليا، فذات ليلة من تلك الليالي، وهي ليلة الأربعاء الرابع من شهر ديسمبر **2013**، استيقظت على الساعة الرابعة والنصف صباحا، وحاولت العودة إلى النوم فلم أستطع، وبينما أنا كذلك إذ ظهر لي أن أكتب عن هذه الرحلة، لأنها شيقة، وتستحق أن أسجل مراحلها، أذكر فيها مراكز البحث ومعالم المدينة التي

زرتها وشيئا من تاريخ مدينة مرسيليا، وأتحدث عن الأساتذة الذين التقيت بهم هناك؛ فسارعت إلى تسجيل بعض الملاحظات التي رنت لي في ذلك الحين.

وشرعت منذ تلك الليلة في تسجيل ما يظهر لي أنه جدير بالتسجيل حتى لا يتبخر في طي النسيان، وكنت كلما زرت موقعا، أبحث عن لوحة للتعريف به أو عن أي تسجيل مكتوب في محيطه. واستعنت بعد عودتي بالأنترنت وببعض المراجع المكتوبة، وقضيت الأيام الأولى من عودتي في تحرير ما كتبت وإثرائه عن طريق المطالعة هنا وهناك.

توصيات الطريق: كانت هذه هي المرة الأولى التي سأزور فيها هذا المركز، لذلك اتصلت ببعض الزملاء الذين زاروه من قبل، لتذليل العقبات التي قد تعترضني، وقد وجدت التفهم من الأستاذ بن داهَة عدة أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة معسكر، الذي خصص لي موعدا شرح لي فيه كيفية الوصول إلى المكان، والعديد من الخطوات الواجب أخذها بعين الاعتبار، جازاه الله خير الجزاء: عن حافلات النقل من المطار إلى مرسيليا ومن مرسيليا إلى إيكس- أون- برفانس وكل ما يرتبط بها.[5]

أما بخصوص الإقامة فإن أسعار كراء الغرف في الفندق باهضة في مدينة إيكس، كما ذكر لي الأستاذ، ولهذا يفضل الباحثون الجزائريون الإقامة في مدينة مرسيليا، حيث الأسعار مقبولة، والتنقل عبر الحافلة إلى مدينة إيكس كل صباح والعودة مساء، بالحصول على اشتراك لمدة أسبوع. ويمكن تناول غداء خفيف يصطحبه معه الباحث إلى المركز، أو تناول وجبة كاملة في المطعم الجامعي الملتصق بالمركز، أو في أحد الأكشاك المجاورة التي يعمل بها شباب مغاربة.

في الطريق إلى مرسيليا: أقلعت بنا طائرة الخطوط الجوية الجزائرية يوم الأحد أول ديسمبر صباحا من مطار أحمد بن بلة الدولي بوهران، وكان يوما ممطرا، فهل سيكون مناخ مرسيليا مشابها مما سيؤثر سلبا على الرحلة؟ ارتفعت الطائرة فوق السحاب، الذي كان يتراءى لنا ككوم من صوف منتوف، قدم لنا مضيفو الطائرة وجبة خفيفة ومشروبات باردة وقنينة ماء صغيرة. كان الركاب كلهم جزائريون، مما يعني قلة السياح عندنا. وبعد أقل من ساعتين كنا في مطار مرسيليا، كانت الإجراءات بسيطة. وبعد أن تم التأشير على جواز السفر من قبل شرطة المطار الفرنسية، خرجت من القاعة الكبرى، واتجهت يمينا فوجدت الحافلة متوقفة، اشتريت تذكرة مَسار المطار- مرسيليا، وبعد **20** دقيقة كنا في محطة القطار بمرسيليا. كان اليوم صحوا، واستمرت كل الأيام الموالية التي قضيتها هناك صحوة مما يساعد على الحركة والتنقل دون عائق، باستثناء مدينة إيكس أون بروفانس البعيدة عن الساحل إلى الشمال، والتي لاحظنا الصقيع الأبيض منتشر بها، ويغطي جوانب الطريق الموصل إليها كل صباح.

في النزل: خرجت من أحد أبواب المحطة والمحدرت في اتجاه البنايات المجاورة أبحث عن نزل آوي إليه، وكان الزميل بن داهة عدة قد سمى لي أحدها، وهو نزل قالييني(Gallieni)، وجدته بعد فترة قصيرة من البحث، وأصبحت من نزلائه. يوجد بشارع (Bernard du bois)، والنزل ملك لأحد الجزائريين أو من ذوي الأصول الجزائرية. الفندق غير كبير ولكنه نظيف، تطل غرفه على ساحة عارية تجري بها أشغال البناء فيما يجري من توسعة لمدينة مرسيليا (ساحة Jules Guesde)، تتوسط الساحة بناية على شكل قوس النصر تدعى "Porte d'Ex". يغلق النزل أبوابه بين الساعة العاشرة ليلا والسادسة صباحا، وهو الوقت الذي يغلق فيه الحمام الساخن، يظهر أن نزلاءه كلهم جزائريون في هذا الوقت من الشتاء.

يعمل به عدة عمال جزائريين يتناوبون العمل فيما بينهم، منهم أحمد وسامي. أحمد رجل عادي يجيبك بقدر سؤالك وربما باختصار، يتحدث كثيرا عن الرياضة، يتابع أوضاع الجزائر عن طريق التلفزة الجزائرية، لا تختلف آراؤه عن أي جزائري بسيط في بلدنا. أما سامي فيظهر من ملاحظاته وتعليقاته أنه رجل مثقف، يحمل خلفية معلوماتية مهمة، يحدثك عن أوضاع المهاجرين الجزائريين وعن مآسي أبنائهم في الغربة، ويتألم لما تعيشه الجزائر وبخاصة العلاقة بين السلطة والمواطن. أسلوبه في التعامل أسلوب رجل متخلق. كنت أغادر النزل قبل الساعة الثامنة يوميا لألتحق بمركز أرشيف ما وراء البحار، فأجده يقرأ القرآن من مصحف بين يديه. أخبرني أن العديد من الأساتذة الجامعيين يقصدون هذا النزل، وهم من مختلف الجامعات، ما يزال يحتفظ بأسماء البعض ممن يتردد كثيرا على النزل.

كنت كلما خرجت من النزل باكرا، وجدت عمال البلدية يقومون بتنظيف الشوارع عن طريق الرش بالمياه التي تحملها إحدى السيارات الخاصة بالتنظيف، بمساعدة عامل نظافة مصاحب للسيارة يوجه أنبوب الماء هنا وهناك، وتقوم السيارة الخاصة هذه بكنس الطرقات بطريقة دورانية، وهي تتبع خطوات العامل، جل هؤلاء العمال مغاربيون.

في الطريق إلى مركز الأرشيف لما وراء البحار (CAOM): طبقت التوجيهات المذكورة بكل دقة فلم ألاقِ أية صعوبة. طلبت بطاقة تنقل أسبوعية وركبت حافلة مرسيليا-إيكس صباح اليوم الموالي (الاثنين)، وهو اليوم الثاني من شهر ديسمبر، ليس بين الحافلة والتي تليها أكثر من عشر دقائق، ولا يسمح للمسافرين بالركوب إلا في الوقت المحدد.

لاحظت وأنا راكب على الحافلة أستاذا يحمل محفظة يتصفح مذكرات الجنرال سالان، اقتربت منه وسألته عن موقف مركز الأرشيف، فرد علي باللغة العربية، وإذا به أستاذ في التاريخ من جامعة

الجزائر-2-، كان قد وصل مرسيليا منذ أربعة أيام، فكان لي دليلا في كثير من الأمور بعد ذلك.

قام عمال الحافلات بإضراب يوم الثلاثاء، لكنهم أبقوا على الحد الأدنى من العمل، فلم نتضرر من ذلك الإضراب. ويتمثل ذلك في حمل كل من يمتلك بطاقة سفر. ومما يدل على الانضباط والشعور بالمسئولية ما شاهدته أمام ناظري؛ فقد لاحظ أحد مسئولي النقل كثرة الطلبة مساء، فهاتف الجهة المعنية يخبرهم فيها بضرورة إيفاد حافلة إضافية، وقد تم تلبية الطلب بسرعة. هكذا غلبونا بانضباطهم وجديتهم وخدمة الزبون كيفما كان، فهو السيد الذي يجب السهر على راحته وتسهيل مهمته.

في كيفية الحصول على الوثائق بالمركز المذكور: بعد حوالي ثلاثين دقيقة من إقلاع حافلتنا، وصلنا المركز وهو بمدينة إيكس- أون- بروفانس التي تبعد عن مدينة مرسيليا بثلاثين كيلومترا. عند الدخول إلى المركز يقابلك موظف(ة) وراء مكتب استقبال يرحب بك ويسألك إن كانت لديك بطاقة قارئ أم لا، وبينما أَخْرَج مرافقي بطاقته قلت للموظفة أنني قادم لأول مرة، فسلمتني مطبوعة ملأتها بعناية، وسجلتني الموظفة، بعد ذلك، عن طريق الحاسوب، وقامت بتصويري، وسلمتني بعد دقائق بطاقة قارئ وعليها الصورة، التي قالت لي أنها ستبقى سارية المفعول طيلة أربع سنوات قادمة، كما سلمتني رقم المكان الذي عينته لي للجلوس فيه. والمطلوب من الباحث أن لا يُدخل معه أية محفظة أو ما شابه ذلك.

كل ما هو مسموح به هو الأوراق البيضاء وقلم الرصاص وجهاز الحاسوب مع آلة التصوير إن كانت لديك هذه الأشياء. وتضع كل ذلك في كيس بلاستيكي شفاف تجده داخل الصندوق الذي يسلم لك مفتاحه والمرقم برقم معين(يشبه صندوق بريد حائطي).[6]

صعدت إلى الطابق الأول، وضعت معطفي الكبير على المشجب الجماعي، ودخلت القاعة الأولى على اليمين، وجدت عددا من الحواسيب على اليسار خاصة بالبحث عن المواضيع المرغوبة. وعلى اليمين مجموعة رفوف عليها العديد من السجلات الملونة الكبيرة الحجم(Classeurs) على كل واحد رقم وعنوان، إلى جانب وثائق تحمل حروفا وأرقاما دون تسميات، وقد لونت السجلات الخاصة بالجزائر باللون الأحمر. ومن العناوين التي تمكنت من رصدها عن الجزائر، ما يلي:

1-Administration police pénitentiaire- 2 -Affaires indigènes.
3-Alger préfecture. 4-Anciens militaires.
5-Bureaux Arabes Algérois. 6-Bureaux Arabes Constantinois.
7-Bureaux Arabes d'Oranie. 8–Colonisation.
9-Colonisation personnel. 10-Communes mixtes.
11-Constantine préfecture. 12-Consulat de France en Algérie.
13-Dons et acquisitions. 14-Oran préfecture.
15-Propriété indigène. 16-Sénatus consulte.
17-Travaux publiques.

بعد أن تسجل العنوان المرغوب مطالعته ورقم توثيقه **(Code)**، تتجه إلى حاسوب خاص، تدخل فيه بطاقة القارئ، فتفتح لك الصفحة، تسجل فيها بعض المعلومات المتعلقة بالوثيقة المطلوبة: بملء الخانات الفارغة كالحروف الأربعة من اسمك ورقم مكانك وصنف الوثيقة ورقمها. وإذا كانت الوثيقة مسموح بقراءتها تكتب لك الموافقة مع الإشارة إلى الساعة التي تستلمها(صفحة خضراء). وإلا خرج لك شريط أحمر عليه غير مسموح بالاطلاع عليه. ويمكنك الاطلاع على الوثيقة في اليوم نفسه، كما يمكنك الاطلاع عليها في يوم موال، على أن تشير إلى ذلك وأنت تطلب الوثيقة في الحاسوب الخاص بذلك، كما يمكنك طلب ملفين في آن واحد، على أن تستلمهما واحدا بعد آخر.

يُسلَّم لك الملف، فتتجه إلى قاعة المطالعة في الرقم الذي أعطي لك، وأمامك مصباح تستطيع إشعاله إذا كان ذلك مفيدا لك. للقاعة مسئول يجلس في صدارة القاعة، أمامه جهاز حاسوب، يراقب القراء من حين إلى آخر دون أن يحس بذلك هؤلاء. وإذا ما اعترضتك أية مشكلة فهو مستعد لتنويرك إلى أقصى حد، حيث ينتقل من مقعده ويدلك على ما عجزت عن فهمه دون تردد.

كانت رغبتي هي الاطلاع على كل ما يرتبط بتاريخ المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر، وقد تمكنت من الاطلاع على بعض الوثائق ولم أتمكن من بعضها الآخر، بسبب عدم السماح بالاطلاع عليها من أجل الحفاظ عليها، إلا أن الوثائق المسموح بها تحتوي على كم هائل من المعلومات، تم الحفاظ عليها، وهي الآن في متناول الباحثين الراغبين في الإطلاع عليها، ولعلنا غير بعيدين عن ذلك اليوم الذي نتمكن فيه من استعادة تلك الوثائق، وتكون الوثيقة أقرب إلى الباحث الجزائري من قطع البحار وتكبد المتاعب، وبخاصة لطلبة الماجستير الذين لا يستفيدون من التسهيلات المادية حتى الآن.

من الوثائق المثيرة التي اطلعت عليها:

1- ملف هدم قبة سيدي الشيخ: سيدي الشيخ، هو عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة **(1533-1616م)** جد قبائل أولاد سيدي الشيخ ومؤسس الطريقة الشيخية. دفن في بلدة الأبيض سيدي الشيخ، الموجودة حاليا بولاية البيَّض في الجنوب الغربي الجزائري؛ يعتبر ضريحه مزارا لخلفه ولمريدي الطريقة من مختلف القبائل، يقام به موسم سنوي يدعى الركب. كان وما يزال رمزا دينيا للطريقة ولمقاومة الاستعمار الفرنسي، منذ مقاومة أولاد سيدي الشيخ التي اندلعت سنة **1864** إلى مقاومة الشيخ بوعمامة ابتداء من سنة **1881**.

تعود قضية هدم هذه القبة إلى الخامس عشر **(15)** من شهر أوت من سنة **1881**، حين قام الجنرال نيقري قائد طابور البيَّض، بتفجير القبة، بعد أن أزال بقايا جثمان صاحبها، وذلك انتقاما لما تكبدته القوات الفرنسية تحت قيادة الضابط إينوسنتي، من هزيمة منكرة أمام قوات الشيخ بوعمامة في

معركة تازينة، التي يسميها الفرنسيون "معركة مولاك" حينا ومعركة "الشلالة" حينا آخر، والتي جرت بينهما يوم 19 ماي 1881. لم أكن أنتظر أن أجد ملفا بذلك الحجم الذي وجدت عليه ملف هدم القبة المذكورة. ويتكون الملف من مراسلات عديدة بين السلطات العسكرية المحلية والمركزية، وفي مقدمتها الحاكم العام الفرنسي في الجزائر. وقد دامت تلك المراسلات عقدا من الزمن، أي طيلة الثمانينيات من القرن التاسع عشر، تدور كلها حول هدم القبة ومسئولية الضابط نيقري وقضية نبش بقايا جثمان سيدي الشيخ وكيفية نقلها، والمكان الواجب نقلها إليه في جيريفيل(البَيَّضْ حاليا)، هل إلى مسجد البلدة أم إلى مكان آخر آمن. وكيف يمكن استغلال قضية بناء القبة من أجل طلب استسلام زعماء أولاد سيدي الشيخ، وعودة القبائل الموالية لهم إلى أراضيها المعتادة، إلى غير ذلك من المواضيع...

2- قضية زيارة سي قدور بن حمزة لمقر الشيخ بوعمامة: سي قدور بن حمزة هو آخر زعيم قاد مقاومة أولاد سيدي الشيخ الشراقة المذكورة سابقا، ضد الفرنسيين، قبل أن يتوفى سنة 1897. يتضمن الملف اتصاله بالشيخ بوعمامة حين كان هذا الأخير لاجئا في بلدة فكيك المغربية سنة 1896. وهو ملف ضخم يضم مراسلات كثيرة بين السلطات العسكرية الفرنسية المحلية والمركزية، حول اتصال سي قدور بن حمزة بباشا بلدة فكيك المغربي ثم بالشيخ بوعمامة، وعمله على جلب أنصار بوعمامة للالتحاق به في الجزائر بعد أن ضمن لهم الأمان من السلطات الفرنسية، وعن الأعراش التي عادت وأسماء أفرادها فردا فردا. وعن مطالبة سي قدور بن حمزة بوعمامة بإعادة ما أخذه الشعامبة أنصاره من إبل للسكان الخاضعين للسلطات الفرنسية، وعن مدى إخلاص العائدين لفرنسا، ومراسلات بعض الأفراد يطلبون الأمان من أجل العودة إلى أوطانهم...

3- قضية الحالة المدنية للجزائريين (الأهالي): لهذا الموضوع ملف مماثل وهام بدوره، يحمل مراسلات كثيرة بين مختلف أطراف السلطات العسكرية الفرنسية في مختلف جهات البلاد الجزائرية، عن الاسم العائلي للأهالي (Les Indigènes)[7] وعن الأسماء المتداولة، وعن القواعد المستعملة (Vocabulaire)، وكيفية كتابة الأسماء العربية بالحروف اللاتينية، وما هي الحروف اللاتينية المقابلة للحروف العربية. وقد تواصلت المراسلات طيلة الثمانينيات من القرن التاسع عشر، استنادا على قانون الحالة المدنية الصادر سنة 1883.

4- أشياء أخرى: تضم السجلات الموضوعة في الرفوف العشرات وربما المئات من العلب، التي تحتوي بدورها على عدد من الملفات، تضم هذه الملفات تقارير ومراسلات بين السلطات المحلية والمركزية الفرنسية. ويضم كل ملف جميع المراسلات والتقارير الخاصة بالموضوع المعين، وقد وضع على بعض

الوثائق سري أو سري جدا، ولكنهه اليوم عادية جدا، يمكن لأي كان الاطلاع عليها، وهناك ملفات غير مسموح بالإطلاع عليها لتعرض أوراقها للتلف، يمكن الإطلاع عليها بطلب استثنائي (Dérogation)، ولكن الرد يتطلب وقتا معينا.

المراكز العلمية بإيكس: تمكنت أثناء وجودي بمرسيليا وإيكس-أون- بورفانس، من زيارة بعض المراكز والمعاهد العلمية المحتوية على أرشيف أصيل حول تاريخ الجزائر، وبخاصة منه الخاص بمرحلة الاستعمار الفرنس.، وكان مركز الأرشيف لما وراء البحار هو أهمها، لما يحتويه من وثائق أصلية عن مرحلة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، والتي تضم مختلف مراسلات وتقارير السلطات الاستعمارية حول الأحداث الجارية في الجزائر، والمواقف الفرنسية الرسمية منها، أي أنها صادرة عن الفاعلين أنفسهم وفي زمن الحدث. أما بقية المراكز فتضم في مجملها كتابات مطبوعة سواء كانت مذكرات شخصية أم مؤلفات قد تكون مصادر كما قد تكون مجرد مراجع، ومن هذه المؤسسات التي أود التعريف بها أذكر ما يلي:

1- مركز الأرشيف لما وراء البحار (Centre des Archives d'Outre-mer): يوجد مقره بـ29 طريق مولان دِيبِتيسْتَه (Chemin du moulin de testas) بمدينة إيكس- أون- بروفانس، مفتوح من يوم الاثنين إلى الجمعة بين الساعة 9-17 دون انقطاع. يغلق في كل سنة خمسة عشر يوما ابتداء من يوم الاثنين الذي يلي 14 جويلية، ويغلق كذلك في أيام العطل الرسمية.

يحتوي المركز على أرشيف ضخم يضم كل مراسلات وتقارير السلطات الاستعمارية الفرنسية في مستعمراتها فيما وراء البحار، أي خارج فرنسا، ومن أهمها أرشيف الجزائر. وهو بالتالي شاهد على ما حدث خلال العهد الاستعماري. يتم المحافظة عليه بكل الشروط المطلوبة، محفوظ في مجلدات وعلب أرشيفية ضخمة. منه ما هو بخط اليد ومنه ما هو مرقون بالآلة الكاتبة.

إلا أن هناك عيوبا لا بد من ذكرها، منها أنك قد تجد وثيقة أو وثيقتين في ملف غير ملفها، فقد كنت أبحث في الملفات الخاصة بوهران فوجدت وثيقة من قسنطينة، وأخبرني الزميل علال بيتور بالملاحظة نفسها، حين كان يبحث في ملف قسنطينة فوجد وثيقة خاصة بمنطقة وهران. ومن ذلك عدم المساس بالوثيقة، فقد وجدت وثيقة تكاد تندثر لتمزقها من كثرة الاستعمال، فلما أخبرت مسئول القاعة كي يستعمل ملصقا خاصا، اعتذر بأنه لن يستطيع فعل شيء واكتفى بوضع مساك الأوراق على الوثيقة، ومن الصعوبات التي تلاقي الباحث هو صعوبة قراءة بعض المراسلات والتقارير بسبب خطها الرديء أو الباهت لطول الزمن ونوعية الورق، (يتعطل المركز كل خميس من بداية كل شهر).

هذا هو أرشيفنا في ما وراء البحار، وكيف يحافِظ عليه خصومنا بالأمس، ولنا الحق في المطالبة

باستعادته إلينا لأنه تاريخنا، وقد أُخِذ من بلدنا دون استشارتنا، لكن السؤال المطروح في هذا المجال هو: هل سنقوم بالحفاظ على ذلك الأرشيف إذا ما أعيد إلينا في يوم من الأيام؟ وهل سيُسمح للجميع بالإطلاع عليه؟ وباختصار هل سنكون في المستوى الذي يجب أن نكون عليه مثلما هم عليه اليوم بحفاظهم على ذلك الأرشيف النفيس؟

2- مركز الوثائق التاريخية حول الجزائر (Centre de Documentation Historique sur l'Algérie)، يوجد مقره بمدينة إيكس أون بروفانس في العنوان التالي:

Maison Maréchal Juin 29, Avenu de Tübingen 13090 Aix-en-Provence.

يوجد هذا المقر غير بعيد عن مركز أرشيف ما وراء البحر (CAOM)، يمكن للشخص أن ينتقل بينهما دون حاجة إلى الركوب. ذهبت إليه رفقة الزميل علال بيتور يوم الخميس 2013/12/5، وتغيبنا عن مركز الأرشيف لما وراء البحار لأنه كان مغلقا صبيحة ذلك اليوم.

يعمل هذا المركز من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة دون انقطاع؛ لكنه يتعطل من 20 ديسمبر 2013 إلى 6 جانفي 2014. أنشأته طائفة الأقدام السوداء في 27 أكتوبر سنة 1975، بعد مدة من رحيلها إلى فرنسا عند استقلال الجزائر. يضم المركز مكتبة ضخمة، لكن قاعة المطالعة غير واسعة.

وبينما لم أجد مادة تهمني في ذلك الحين، وجد زميلي بيتور زَخَما كبيرا من المذكرات والكتابات حول تاريخ الجزائر المعاصر (الفترة الاستعمارية) بأقلام فرنسية. وبخاصة ما يهم موضوع أطروحته في الدكتوراه حول الولاية التاريخية الثانية (الشمال القسنطيني). وما شد انتباه زميلي هو كتاب مهم عن أحداث 20 أوت 1955 بالجزائر من تأليف فرنسي، ومن ذلك مذكرات جنرالات فرنسيين شاركوا في حرب الجزائر، كما يسمونها، مثل سوستيل وسالان وغيرهما. لم يكمل زميلي عمله، ولذلك عدنا إليه في اليوم الموالي، ليكمل زميلي تصوير بعض الوثائق التي تهمه.

يُسَير المركز جمعية فرنسية وطنية تحت رئاسة الأستاذ سيكوليني Ciccolini (Sénateur Maire d'Aix-en-Provence)، ويهتم المركز بجمع الوثائق الخاصة بتاريخ الجزائر حتى سنة 1962، من أجل الحفاظ على ذاكرة هذه المرحلة من تاريخ الجزائر الفرنسية.[8]

وجاء في التعريف بالجمعية أن من أهدافها البحث في كل مكان في فرنسا وخارجها لجمع وحفظ والتعريف بالوثائق بكل وسائل التعبير(التاريخ- الأدب- الفن البلاستيكي- وثائق بالصوت والموسيقى، وغير ذلك...) المتعلقة بالجزائر قبل الحضور الفرنسي وبعده، وكذلك ما يلي هذا الحضور. وقد أصدَرَت في هذا المجال مجلة تدعى "Mémoire vive"[9] والمكتبة غنية بالمؤلفات وتضم مليون كتاب. وقد أصدرت الجمعية كتيبا للتعريف بنفسها، ذكرت فيه أن شخصيتان كانتا وراء ظهور

فكرة الجمعية والمركز على السواء، وهما السيدة شارل فالان **(Charles Vallin)** نائبة رئيس الجمعية الجزائرية سابقا) والآنسة باسكيي-برواند**(Pasquier-Bronde)**. ويظهر أن من أسباب إنشاء الجمعية والمركز معا هو حنين الأقدام السوداء إلى الجزائر، البلد الذي ولدوا فيه، واضطروا إلى تركه رغما عنهم. وقد طبعت مجموعة من الكتب يظهر فيها الحنين والشوق إلى الجزائر. منها على سبيل المثال عناوين الكتب التالية، التي اطلعنا عليها في مكتبة المركز:

-Terre natale, l'impossible oubli…. Jean pierre et Georgette pascuite.
-Là-bas souvenir d'une Algérie perdue, Alain Vicondèlet.
-La Guerre des appelés en Algérie, Erwan Bergot.
-Le Pays d'où je viens, Elisabeth Fechner.
-Nos guerres Perdues, André Dulae.
-Nous devons rester en Algérie…
-Pied noir d'où viens tu?..

مما يلاحظ أن جل الكتب الموجودة في هذا المركز تدور حول مرحلة العهد الفرنسي بالجزائر، الذي عاشت فيه فئة الأقدام السوداء بالأرض الجزائرية.

3- معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي:(IREMAM)

Institut de recherche et d'études sur le monde arabe et musulman

يوجد المعهد بمدينة إيكس - أون - بروفانس في العنوان التالي:

5, rue du château de l'horloge 13094 Aix-en-Provence.

هو عبارة عن وحدة بحث في مختلف العلوم. يتنوع مجال اهتمامه في التاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والجغرافيا والقانون والعلوم السياسية في الوطن العربي والإسلامي، وهو فرع من الدار المتوسطية لعلوم الإنسان.

والمؤسسة وريثة مركز دراسات الشمال الإفريقي التي نشأت سنة **1958** في إيكس أون بروفانس، والتي أصبحت تدعى مركز البحوث حول إفريقيا المتوسطية سنة **1962**. وهو مختبر مرتبط بـ **CNRS**. وتشترك جامعة إيكس-ماريسليا والمركز الوطني للبحث العلمي. وفي سنة **1969** شاركت المؤسسة في التجمع الذي يتكون من معهد البحوث المتوسطية، الذي أصبح يدعى مركز البحوث والدراسات حول المجتمعات المتوسطية سنة **1970**. أما المكتبة توجد داخل قسم العالم العربي والإسلامي في مكتبة الدار المتوسطية لعلوم الإنسان.[10]

وفي سنة **1984** كان مديره **André Raymond** وهو الذي قاد عملية إنشاء **(Iremam)** سنة **1986**. وتتولى، إدارة المعهد، منذ سنة **2007** السيدة **(Ghislaine Alleaume)**.

يضم المعهد أربة عشر **(14)** باحثا في **CNRS** وسبعة عشر**(17)** أستاذا باحثا من **(L'AMU)**، منهم ستة **(6)** ملحقين بالخارج سنة **2012**، وعدد كبير من الحاصلين على الدكتوراه، ومن الذين يُحَضرونها، وعدد من الباحثين المشاركين. والمعهد هو الناشر للدوريات التالية:

L'Annuaire de l'Afrique du nord- L'Année du Maghreb- L'Encyclopédie berbère- Revue du monde Musulmans et de la Méditerranée(REMM).

4- الغرفة التجارية لمرسيليا: يوجد مقرها بالقرب من الميناء القديم، تحتوي على مخطوطات، تتمثل في مراسلات القناصل الفرنسيين في الجزائر إلى سلطات مرسيليا عن الأوضاع هناك خلال الفترة العثمانية؛ من حيث كان القناصل يستلمون أجورهم الشهرية. لم أزرها لضيق الوقت.[11]

من المكتبات الخاصة: توجد مكتبتان خاصتان وسط مدينة مرسيليا، حسب علمنا، غير بعيدتين عن بعضهما وعن ميناء مرسيليا القديم**(Vieux Port):**

1- مكتبة Mau Petit: تحتوي على طابقين، طابق أرضي وطابق أول. يوجد رفان خاصان بالتاريخ في الطابق العلوي، وهي مكتبة خاصة، تهتم في مجملها بكتب الأطفال، غير بعيدة عن الميناء القديم.

2- مكتبة Gilbert Joseph: تتكون هي أيضا من طابقين أرضي وعلوي. توجد كتب التاريخ في الطابق العلوي وقليل منها عن الجزائر. ليست بعيدة عن المكتبة السابقة. توجد بـــ **6, Boulevard Dugommier.**

3- معرض الكتاب القديم: يعرض باعة الكتب القديمة معرضا شهريا في الساحات العامة: ففي أول أحد من كل شهر يقام في مدينة إيكْسْ أُونْ بْرُوفانْسْ، وفي أول سبت من بداية كل شهر يقام في مدينة مرسيليا. وقد حضرت معرض مرسيليا يوم السبت **7-12-2013.**

يَعرض الباعة هنا كتبهم في ساحة واسعة تقع بين البنايات السكنية، بجوار الميناء القديم لمدينة مرسيليا باكرا، وبجوار **Quai des Belges**، في العنوان التالي: **1ere Arrondissement cours d'escienne d'orves**، وقد مررت على المكان حوالي الساعة السابعة صباحا ووجدتهم يصففون كتبهم على طاولات طويلة، وهم لم ينتهوا بعد من ذلك، وعدت إليهم بعد ذلك رفقة زميلي علال بيتور.

لم أحضر معرض إيكس الذي أقيم يوم الأحد أول ديسمبر **2013** لوصولي إلى فرنسا مساء اليوم نفسه، وقد حضره زميلي بيتور علال، وحصل منه على مذكرات الجنرال سالان المتكونة من ثلاثة أجزاء بعشرين أورو.

من الباحثين الذين التقيت بهم بإيكس:

1- الأستاذ علال بيتور: أستاذ مكلف بالدروس بقسم التاريخ بجامعة الجزائر **2**. يحضر لشهادة

2- الدكتوراه حول الولاية التاريخية الثانية، دراسة عسكرية. وُفق في الحصول على وثائق ذات أهمية خاصة بالموضوع الذي يبحث فيه.

2- الأستاذ أحمد بن جابو: أستاذ محاضر من المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة بالجزائر العاصمة. يقول إنه يبحث في تاريخ الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وأنه حصل على مادة تاريخية هامة سيعتمدها في أبحاث لاحقة.

3- الأستاذ لخضر بوطبة: أستاذ مكلف بالدروس بقسم التاريخ وعلم الآثار، بجامعة سطيف 2. يُحَضر أطروحة الدكتوراه في فرنسا في إطار تربص طويل المدى، في موضوع: "بجاية خلال العهد العثماني." ونتائج عمله إيجابية.

4- الأستاذ جينو راسو لواريزون Jeannot Rasoloarison : أستاذ محاضر في التاريخ المعاصر بقسم التاريخ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة أنتناناريفو (Antananarivo) بجمهورية مدغشقر. موضوع بحثه: "العمل والنقابة في مدغشقر في مرحلة الاستعمار 1945-1960."

5- السيد عبد الناصر رحموني: باحث هاو من ولاية قسنطينة، يسكن فرنسا منذ ثلاثين سنة. يقول إنه يبحث في تاريخ بلدته الريفية ابن زياد. ويذكر أنها بلدة قديمة منذ العهد الروماني كانت تسمى Castel maroute، وكانت بها مقبرة رومانية.

وهناك أستاذان من جامعة بسكرة، وصلا فرنسا في الأيام الأخيرة من وجودي هناك وهما: مصمودي نصر الدين وفريح خميسي.

6- أساتذة فرنسيون: هناك أساتذة وأستاذات من فرنسا، يطالعون الوثائق الأرشيفية يوميا،لم أرد إدماجهم ضمن هذا العمل المتواضع، ربما لكثرتهم بالمقارنة مع الأجانب، ولأنني استبعدتهم من أول الأمر.

المساجد في مرسيليا وإيكس أون بروفانس: لا يوجد مسجد بمعناه المعروف عمرانيا في مدينة مرسيليا ولا في مدينة إيكس- أون- بروفانس، بل هناك مساجد تشبه مصليات توجد مقراتها في الطابق الأرضي من العمارات في الأحياء التي يسكنها المغاربيون من تونسيين ومغاربة وجزائريين، تُستغل من أجل إقامة الصلوات الخمس وصلوات الجمع، ولذلك فالمساجد صغيرة في أغلب الحالات. يلحق بها كلها مكان للوضوء يتسع أو يضيق بحسب مساحة كل مسجد. تتخلله أعمدة إسمنتية تنقص من مساحة قاعة الصلاة. يؤم المصلين أئمة مغاربيون في الغالب، منهم من يلقي الخطبة باللغة العربية فقط ومنهم من يترجم فقراتها إلى اللغة الفرنسية. يأتي بعضهم من الجزائر والمغرب، ويتولى آخرون الإمامة بصفة حرة، يوظفهم المصلون أو أحد الموسرين الذي يتكلف بالإمام وبراتبه الشهري. مثلما هو

الحال في أحد مساجد مرسيليا القريب من الميناء القديم في شارع (Francis de Presseuse)، سكان هذا الحي كلهم مغاربيون، وقليل من الأفارقة (أغلبهم من جزر القمر)، بناه تاجر جزائري مجاور، يسهر على سيره وتعيين الإمام فيه. يؤذن المؤذن داخل هذه المساجد ولا يسمعه إلا من كان في الداخل. يفتح المسجد قبيل الصلاة بدقائق معدودة ويغلق أبوابه بعد الصلاة بدقائق معدودة أيضا.

إن موقع المساجد تحت العمارات في أحياء المسلمين بأبواب عادية ودون لافتة تخبر عن صفة المكان (في بعضها)، والآذان الصامت، كلها تدل بطريقة أو بأخرى وكأن الناس هناك يتسللون للصلاة فيها خوفا من كشف أمرهم. فإذا لم تسأل عن مكان المسجد فلن تهتدي إليه أبدا. فهل تنطبق هذه الظروف على الكنائس هناك؟ أبدا. هناك في فرنسا تقف الكنائس شامخة ذات فن عمراني متميز وعلو شاهق، في مكان بارز مستقل عن غيرها من البنايات. تدق الأجراس فيدخل الناس أفواجا من أبواب شاهقة، ويؤدون صلواتهم في مقرات واضحة المعالم.

صليت في بعض تلك البنايات التي يسمونها مساجد، منها ثلاثة مساجد في المنطقة المحيطة بمركز الأرشيف بإيكس، ومسجدان اثنان بالقرب من محطة القطار بمرسيليا، توجد كلها بالقرب من تجمعات السكان المغاربيين. يندر فيها تعليم القرآن الكريم، وقد أخبرني أحد المغتربين، ونحن في طائرة العودة إلى الجزائر أن بمساجد ومصليات باريس ملحقات لتعليم القرآن الكريم لأبناء المسلمين هناك.

الأسواق: تعرفت خلال إقامتي بمرسيليا على سوقين شعبيين، باعتها جزائريون ومشتروها جزائريون، إلا ما ندر من غيرهم كالفرنسيين والتونسيين والمغاربة، وهما:

1- سوق La plaine: يقام بساحة جون جوريس (Place Jean Jaurès. 1ere Arrondissement) وهي مساحة متوسطة من الأرض بين البنايات السكنية، غير بعيد عن الميناء القديم لمرسيليا. تُعرض فيه مختلف أنواع السلع، كالملابس (القديمة والجديدة) والأواني المنزلية والفواكه وبعض الأجهزة الإلكترونية والعطور، يُفتح السوق أيام السبت والثلاثاء والخميس.

2- سوق Marché Plus: يوجد بسان لازار، يفتح يومي السبت والأحد من كل أسبوع. وهو أكثر اتساعا من سابقه وأكثر عروضا. تصل إليه الحافلة رقم **Bus : 70** انطلاقا من وسط مرسيليا. وجدنا أصحاب الحافلة في إضراب فانتقلنا عبر سيارات أجرة غير مرخصة (غير قانونية) باثنين أورو. وقد حملنا، أثناء الذهاب، سائق مغربي، بينما عدنا مع سائق جزائري من خنشلة، لم يجد هذا الأخير عملا آخر يرتزق منه كما صرح لنا بذلك.

يغلب على سلع السوق الملابس الجاهزة. وتنتشر إلى جوار هذا السوق الرسمي باعة الأشياء البالية يعرضونها على طول رصيفي شارع مجاور من ألبسة وأحذية وأوان وغير ذلك... وليس للسوق سقف

مغطى بل كلها على الهواء الطلق. لا تحس بأنك في بلد بعيد وأنت في هذا المكان، فهل هي الولاية التاسعة والأربعون كما يقول البعض؟

المطاعم: أول ما يفكر فيه المسلم الداخل إلى أراض غير إسلامية هو أين الحلال وأين الحرام، وتطرح أمامه عدة تساؤلات، منها كيف المأكل وكيف المشرب؟ هل يكتفي المرء بالمأكولات الخفيفة الباردة التي لا تستدعي السؤال عن الحلال والحرام، أم هناك حلول أخرى؟

لكن الأمر تم حله بمجرد أن وجدت نفسي في أحياء إسلامية مغاربية. فها هي المطاعم والمقاهي والمخابز والمتاجر بمختلف محتوياتها تستقبل زوارها من المسلمين، بل حتى من بعض الفرنسيين المعجبين بالطبخ المغاربي. كل الأكلات والمشروبات المغاربية موجودة. ومن مسميات المطاعم التي لاحظتها في شارع فرانسيس بريسوز(Francis de Presseuse)، نجد ما يلي: -Royal- Le Soleil **La Paix- Kahina- La palmerai.....**، وفي شارع لافار **(Rue de la fare)** المتفرع عن السابق، نجد: مطعم جرجرة ومطعم الأوراس ومطعم الفنك.. ومما يلاحظ أنك لا ترى في هذا الحي سوى كبار السن من الجزائريين يتجولون هنا وهناك، يدخلون المقاهي أو المطاعم أو المصليات. كل شيء هنا مغاربي أو قل كل شيء جزائري: المطاعم والفنادق والمنازل والمتاجر والمخابز ومحلات الحلويات ومحلات الحلاقة وغير ذلك، وقليل منهم المغاربة والتونسيين والأفارقة.

جمعية خيرية: في أحد شوارع مرسيليا يتوزع شباب وشابات مسلمون ومسلمات من أصول مغاربية، على أطراف الطريق حاملين معهم رزنامات سنوية **(Calendrier)** يوزعونها على المارة مقابل 5 أورو،[16] بعد إقناع المارين بضرورة المساهمة في تموين الجمعية التي ينتمون إليها، وهي "جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية في فرنسا."[17] وبمجرد وقوفك يشرع الشاب أو الشابة في التعريف بالجمعية وأهدافها، وهي مواجهة طائفة السلفية والوهابية، وأنهم من أهل السنة والجماعة، هدفها وحدة المسلمين، كما يقولون، ومساعدة المعوزين والإشراف على الحج والدعوة إلى الإسلام والدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر، وشرح الإسلام الصحيح للمسلمين ولغيرهم في فرنسا. تعمل على تنظيم وتجميع وتنشيط الشباب، وتجدد الاحتفال بالأعياد الإسلامية، والتذكير بالمبادئ الواجب إتباعها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. يوجد مقرها بمدينة مرسيليا بـــ 99 شارع ستراسبورغ 13003. وفي باريس بـــ 52 شارع أورناتو 75018.

الإعداد للاحتفالات: La mairie 1ere et 7eme vous souhaite de joyeuses fêtes.

كان هذا الشعار معلقا في إحدى الساحات بمدينة مرسيليا، وهو يعبر عن المناسبة. يعتبر عيد الميلاد من أهم الأعياد المسيحية اليوم، ويُمثل تذكار ميلاد يسوع المسيح، وذلك بدءًا من ليلة 24 ديسمبر ونهار 25 ديسمبر في التقويمين الغريغوري واليوليانى.

ويعتبر أول جانفي (يناير- كانون الثاني) يوم عطلة رسمية عالمية، يتعطل فيه الموظفون والعمال، رغم أنه عيد ديني للمسيحية، ورغم أن الكتاب المقدس لم يذكر تاريخ ميلاد المسيح، فإن آباء الكنيسة قد حددوا، ومنذ مجمع نيقية عام 325 الموعد بهذا التاريخ، كذلك درج التقليد الكنسي على اعتباره في منتصف الليل. ويترافق عيد الميلاد باحتفالات دينية وصلوات خاصة بالمناسبة، أبرزها وضع شجرة الميلاد وتبادل الهدايا واستقبال بابا نويل وإطلاق الألعاب النارية.[18]

وقد لاحظت، أثناء وجودي في مرسيليا في الثلث الأول من شهر ديسمبر، بدء ظهور مراسيم الاحتفالات بهذا العيد من قبل سكان مرسيليا. فقد بدئوا في الإعداد لاستقبال عيد ميلاد المسيح، بحسب معتقدهم، من ذلك: تعليق الأضواء الملونة والمشكلة بمختلف الأشكال على جوانب الميناء القديم وأطراف الشوارع. ومنها: نصب بيوت بلاستيكية وخشبية لتقديم مختلف العروض والمعارض، ومنها مجسم لألعاب الأطفال: خيول وحيوانات مختلفة يركبونها لتدور بهم، وكراسي تدور وتهتز، والدائرة الكبيرة الدوارة. كما يتم إعداد وتجهيز الساحات الواسعة ووضع صور لبابا نويل هنا وهناك.

ويحدث عادة أن تخفض، في أيام هذه الأعياد، أسعار بعض السلع، لذلك يقصدها بعض حملة الشنط من الجزائريين لينقلوها إلى بلدهم من أجل البيع. وقد بدأت بعض هذه البيوت في فتح أبوابها أمام المشترين والزوار منذ يوم 9 ديسمبر، وتشمل مجموعة من المحلات المتعددة السلع الموجودة مثل البيوت المجسمة الموجودة بجوار الميناء القديم، وألعاب الأطفال وعروض لبيع الورود من كل الأنواع إلى جانب شجرة (La buche). هذا ما لاحظته عيانا في مدينة مرسيليا.

استمعت إلى منشط إحدى الحصص، في الإذاعة الفرنسية يوم 11-12-2013، ونحن في اتجاه المطار، وهو يتعرض لاحتفالات الأطفال ببابا نويل، وذكر المذيع أن الأطفال يبعثون برسائل، في هذه المناسبة، إلى بابا نويل، وحاور بعض الأطفال ليخبروه عما كتبوا في رسائلهم إلى بابا نويل، وعن رغباتهم وآمالهم، وسأل المنشط: هل يتم الرد على رسائل الأطفال؟ فأجابته زميلته المرافقة له في البرنامج نفسه بقولها: سيرد عليهم دون شك، سيجيبهم وهذا مؤكد.

محطات مختصرة من تاريخ إيكس- أون- بروفانس ومرسيليا:

1- مدينة إيكس- أون- بروفانس: مدينة فرنسية في الجنوب الشرقي إلى الشمال من مرسيليا (30كم). مثلت العاصمة التاريخية لإقليم بروفانس حتى عام 1932. كانت مدينة رومانية منذ ما قبل

الميلاد، وكانت تدعى **Aquae Sextiae** احتلت مكانا إستراتيجيا مما سمح للجمهورية الرومانية بأن تستعملها لحماية المنطقة التي كانت بأيدي **Salyens** في القرن الثالث الميلادي.

في سنة **1486** ارتبطت بفرنسا وفي سنة **1501** زارها لويس الثاني عشر وأنشأ برلمان بروفانس الذي بقي حتى قيام الثورة. حملت الاسم الروماني السابق ثم أصبحت تدعى إيكس منذ ألف عام مضت. وفي سنة **1932** حملت اسمها الرسمي وهو إيكس- أون- بروفانس.

في سنوات السبعينيات **1970** سجلت نموا في مجالات عديدة مما غير من وجهها الاقتصادي، فظهرت بها العديد من المقاولات والصناعات التي عممت التوظيف واستقرت في **(Les Bouches- du- Rhône)** وتتمثل في: المركب البتروكيماوي ببركة بير**(Etang de Berre)** ومركز الدراسات النووية في **(Cadarache)**. استفادت مدينة إيكس من هذه المنشآت الوظيفية وازداد نمو سكانها. كما شهدت العديد من السياح مما تطلب توفير منشآت لخدمتهم. تملك إيكس- أون- بروفانس عددا من الجامعات والمدارس الكبرى(الآداب- القانون- الاقتصاد- العلوم السياسية- الفنون والحرف- الفنون الجميلة..)[19] يغطي أراضيها الصقيع شتاء فيعطيها حلة بيضاء ناصعة لكنها لاسعة.

2- مدينة مرسيليا: ميناء متوسطي هام. تتسع فيها الشوارع الكبرى ليصل عرض بعضها إلى خمسين مترا يسير فيها الترامواي، وعلى جانبيه رصيف واسع للراجلين، وآخر ضيق ذا اتجاه واحد للسيارات تفصله عن الراجلين أعمدة حديدية. أما الأرصفة فتفصل بعضها عن طريق السيارات بعض الأعمدة الحديدية القصيرة ارتفاعها يقل من المتر الواحد.

تقع مرسيليا على الساحل الجنوبي لفرنسا، من البحر المتوسط، يزيد عدد سكانها في المحيط الإداري **850** ألف، أما مرسيليا الكبرى فيبلغ سكانها مليون وسبع مائة ألف نسمة **(1,7** مليون: سنة **2012)**. يعد ميناؤها أكبر موانئ فرنسا التجارية. ويقع مطارها الدولي في شمالها الغربي، يوجد بها أرخبيل فريول المتكون من أربع جزر.

سكن مرسيليا الإنسان القديم منذ حوالي ثلاثين ألف سنة، تأسست على يد الإغريق عام **600** قبل الميلاد، وسموها ماساليا. وكانت من أهم موانئهم، ثم غزاها الرومان، واحتلها يوليوس قيصر بعد وقوفها مع عدوه بومبيوس الكبير عام **49** قبل الميلاد. وسميت في عهدهم بـــ ماسيليا. وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية سقطت مرسيليا في يد القوط الغربيين، ثم استولى عليها الفرنجة في منتصف القرن السادس الميلادي.

كانت العلاقات التجارية وطيدة بين مرسيليا والمشرق العربي في القرن الثامن الميلادي؛ فقد كانت السفن الفرنسية تتجه إلى موانئ سوريا ومصر لجلب التوابل والأقمشة والحرير والعطور.. ومما ساعد على ذلك تحالف الخليفة العباسي في بغداد مع أمراء فرنسا.[20]

دخلها المسلمون في القرن التاسع الميلادي (838م) عن طريق البحر مرورا بجزيرة ميورقة "وأنزلوا بها الجنود واستولوا على عدد كبير من الأسرى...."[21] واجتاح المسلمون سواحلها مرة أخرى هي وشواطئ جنوة سنة 848م. "ولم يتردد الملك بيبين الأصغر الذي كان في حرب مع عمه شارل الأصلع، لم يتردد في أن يستنجد بالمسلمين.."[22] ويضيف جوزيف رينو أن المسلمين غزوا مدينة إيكس هي أيضا.[23]

وبذلك ظلت مرسيليا ميناء تجاريا طيلة العصور الوسطى، وتعرضت للنهب من قبل تاج أراغون عام 1423م. واتحدت مع مدينة بروفانس عام 1481 ثم أدمجت مع فرنسا في العام الموالي، زارها الملك الفرنسي فرانسوا الأول وشيد بها الحصون.

أصبحت مرسيليا قاعدة بحرية للقوات الفرنسية والعثمانية المتحالفة عام 1536 ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبخاصة جنوة. وازدادت أهميها كميناء عسكري رئيسي لفرنسا على البحر المتوسط عام 1720. انضم السكان إلى الثورة الفرنسية وأرسلوا 500 متطوع إلى باريس لمناصرة الثورة في جويلية 1792. وفي الطريق إلى باريس، غنى المتطوعون، أغان للثورة عُرفت بعد ذلك باسم: "لا مارسييز." وهي النشيد الوطني الفرنسي منذ عام 1879 حتى اليوم.[24]

ازدهرت مرسيليا بعد فتح قناة السويس سنة 1869، ونجح الألمان في احتلالها في نوفمبر سنة 1942 وتم تحريرها في أوت 1944، تعرضت أثناء ذلك لقصف الحلفاء لتحرير فرنسا من القوات النازية، ثم أعيد بناء الكثير من مبانيها في الخمسينيات من القرن العشرين. وقد دفعت الألمانيتان وإيطاليا تعويضات هائلة، بالإضافة إلى تعويض المدنيين القتلى والجرحى والمشردين والذين خسروا أملاكهم في الحرب.

يجري اليوم تجديد المدينة ببرنامج كبير كتطوير الميناء وتوسيع الشوارع وبناء المرافق السياحية. ومن أهم وسائل النقل العمومية المتوفرة اليوم نجد المِترو والترامْوَايْ والحافلات المريحة. وقد لاحظت، وأنا أتجول في المدينة، وجود شعار في الساحة المجاورة لباب إيكس، يعبر فيه عن عمليات التجديد والترميم التي تشهدها شوارع مرسيليا وهو:

L'opération qui transforme Marseille. Dès 2010 l'autoroute recule, la ville avance. تقطن مرسيليا جالية كبيرة من مختلف الأعراق كالإيطاليين والأرمن

والكورسيكيين والأقدام السوداء العائدين من الجزائر سنة **1962** وسكان جزر القمر، أما الجالية المغاربية فهي الأكثر عددا، وتبلغ نسبتهم ما بين **30** و**40** في المائة من سكان مرسيليا.[25]

مرسيليا-بروفانس عاصمة الثقافة الأوربية لسنة 2013: ظهر تقليد "العاصمة الثقافية لأوربا" إلى الوجود سنة **1985** من قبل الإتحاد الأوربي، بهدف التقريب بين الشعوب الأوربية، والتأكيد على الدور المركزي للمدن في الميدان الفني والثقافي.

كانت أثينا أول عاصمة للثقافة الأوربية سنة **1985**، وتلتها بعدها حوالي ثلاثين مدينة، مثلت هذا اللقب الذي يتمناه الجميع؛ كانت من بينها أربع مدن فرنسية، وهي: باريس سنة **1989**، وأفينيون سنة **2000** وليل سنة **2004**، وها هي مرسيليا بدورها تصبح عاصمة للثقافة الأوربية سنة **2013**، ومعها مدينة كوسيس **(Kosice)** من دولة السلوفاك، واللتان عرضتا برنامجا بأحداث ثقافية استثنائية من معارض وعروض وفنون وحفلات شعبية.

تضم مرسيليا-بروفانس اليوم مليوني ساكن و**130** بلدية وست تجمعات سكنية، شعارها خلق إقليم ملتحم اقتصاديا وثقافيا، وقد قامت مرسيليا بالتشارك مع بلديات وتجمعات سكنية مجاورة لتحقيق هذا الهدف.

إن اختيار مرسيليا عاصمة للثقافة الأوربية في مواجهة ليون وبوردو وتولوز، لم يأت اعتباطا ولا صدفة، وإنما جاء نتيجة لأهميتها وتكريسها لسياسة ثقافية مطبقة من قبل رئيس البلدية جان كلود قودان **(Jean Claude Gaudin)** كما يرى ذلك الفرنسيون.

تحتل مرسيليا المرتبة الثانية، بعد برلين، التي تعتبر المرجعية الأوربية، في النفقات الثقافية. حيث يبلغ معدل الإنفاق الثقافي في مرسيليا **155** أورو للساكن الواحد، وهو ما يبين الشكل العادي للاستثمارات العمومية الكبيرة التي تصرف في الميدان الثقافي وصناعة المعرفة.

إن تنوع فنون الشارع والفنون البلاستيكية مرورا بالمسرح والسينما والموسيقى من كل الآفاق، وكذلك الرقص، وكل حقول التعبير الفني هذه حاضرة في مدينة مرسيليا، وغالبا في مستوى عال.

لقد تم إعداد برنامج فني وثقافي جد غني، خلال هذه السنة، مما ينشط الإقليم كله **(مارسيليا-بروفانس):** نغم- معارض مهمة- مئات الجوقات- مواقع فنية- حفلات شعبية كبيرة، تجري كلها في المقرات الثقافية والساحات العمومية في كل الإقليم.[26]

بعض معالم مدينة مرسيليا: تزخر مدينة مرسيليا كمدينة وميناء متوسطي بالعديد من المعالم التاريخية الأثرية تمكنت من الاطلاع على بعضها، ولم أتمكن من بعضها الآخر. وهي:

1- متحف حضارات أوربا والبحر المتوسط **(MUCEM)**

Musée des Civilisations de l'Europe et de la Méditerranée

هو عبارة عن بناية ضخمة، أقيمت عند مدخل الميناء القديم لمرسيليا، يتم الولوج إليه عبر طريقين: طريق علوي من الساحل الصخري بواسطة جسر حديدي ذي جدران حديدية أيضا، يوصلك إلى سطح البناية. يمر تحته شارع كبير يربط بين أجزاء الميناء. وطريق يدخلك من أسفل البناية عبر الميناء القديم مباشرة عن طريق باب يتصل بأحد أبراجه ليتم الصعود عبر أدرج ضيقة إلى أعلاه.

تأخذ البناية شكل قلعة يحيط بها رواق علوي يشرف على جوانبه المطلة على الميناء القديم، ومنه يمكنك رؤية الميناء الجديد لمرسيليا ومساحة هامة من ساحل مرسيليا.[27]

بعد دخولك البناية من الجسر، تجد على يسارك قاعة يُعرض على جدرانها شريط سمعي بصري، يستعرض تاريخ مرسيليا عبر العصور وعلاقاتها مع بلدان البحر المتوسط عن طريق الصورة. لتمر عبر ممر مغطى على شكل مقوس لمسافة معينة بأرض مرصوفة حجرية مزركشة.

في الجانب الشرقي من هذه القلعة يوجد برج ملتصق بها يدعى برج الملك روني. تجد عند مدخله صورة للأدراج وبجانبها رقم 79، يظهر أنه عدد الأدراج الصاعدة. سطح البرج مستدير الشكل، يستطيع المرء رؤية كل الميناء شرقيه وغربيه. وعند باب السطح تجد لوحة عليها الملاحظة التالية: لا يتحمل السطح أكثر من 19 شخصا.

تقع، كما ذكرنا، هذه القلعة عند مدخل الميناء القديم الذي يشبه بحيرة تمر إليها مياه البحر عبر قناة تسمح بمرور المراكب البيضاء التي تملأ الحوض والصالحة للنقل، وهي ما بين متوسطة الحجم وصغيرة أيضا.

ومن القلعة ينطلق نحو الجهة المعاكسة للبرج السابق الذكر، جسر حديدي حديث نحو الغرب في اتجاه الميناء الجديد دون أن يصله. ليصل إلى مبنى زجاجي مجاور به مكاتب إدارية. ومن هذه البناية الزجاجية يمكنك النزول عبر أدرج خشبية نحو الطريق السفلي في أرضية الميناء الحديث.

برج الملك روني: (La tour du roi René): ابتداء من سنة 1253 أصبح دور البرج هو مراقبة وحراسة مدخل الميناء بواسطة سلسلة مثبتة ومربوطة في الجهة الأخرى المقابلة للقناة. وفي سنة 1423 قام الأراغونيون بنهب مرسيليا وحملوا معهم تلك السلسلة. وهي اليوم موضوعة في كاتدرائية فلانسيا (Valence)، وقد قام الملك روني بإعادة بناء البرج ابتداء من سنة 1447. وفي القرن السابع عشر تمت تقوية دفاع المدينة ببناء حصن القديس نيكولا في الضفة الجنوبية لحصن القديس جون... (من لوحة على جدار البرج).

2-قصر لونغ شام (Le palais Long champ): هو معلم تاريخي لمرسيليا يوجد في المقاطعة الرابعة، يتكون من أربع كيانات:

أ- في الوسط خزان ماء تم تحويره لإحياء ذكرى وصول المياه من Durance إلى مرسيليا. تتراءى لك المياه متدفقة، في الوقت الحالي، على أطراف صور لبعض الحيوانات المجسمة كالخيول والسباع والثيران.. لتتزلق تلك المياه منحدرة من شلال اصطناعي نحو حوض صغير سفلي.

ب- متحف الفنون الجميلة.

ج- متحف التاريخ الطبيعي الموضوع اليوم تحت إشراف وزارة التعليم العالي والبحث، وقد صنف كمتحف لفرنسا سنة 2002.

افتتح القصر سنة 1869، وقد تم بناؤه ليكون نقطة وصول مياه Durance المحولة لتموين مدينة مرسيليا التي كانت تعاني من نقص المياه.

يوجد خلف القصر حديقة نباتية وأخرى حيوانية، ويلاحظ أن هذه الأخيرة لم تستقبل منذ سنة 1980 حتى اليوم أي نوع من الحيوانات. يمثل هذا المعلم مكانا للنزهة والراحة لسكان مرسيليا.[28] ويحتل مكانا استراتيجيا وسط مدينة مرسيليا، تمر بالقرب منه سكة حديد الترامْوَايْ، ويُفتح أمامه الشارع الذي يحمل اسمه. وعلى أطرافه تمر شوارع كبيرة واسعة.

يستفيد المَعْلم من عدة أنواع من الحماية باعتباره معلما تاريخيا. له تصنيفان أحدهما بقرار 18 نوفمبر 1997 وثانيهما قرار 8 نوفمبر 1999، وتسجيل بقرار أول أكتوبر 1974.

3- السيدة دو لاقارد (Notre dame de Lagarde)[29] تقع في شارع: Rue Fort du sanctuaire

عبارة عن كتلة عمرانية في مرتفع تحيط بها الأشجار، ارتفاع المكان بحسب ما هو مبين في كتيبات خاصة هو 162 مترا عن مستوى سطح البحر، القريب منه. وقد نُجِّرت أطرافها لإقامة البنايات السكنية. ومن أعلى سطح المكان تستطيع رؤية بعض الجزر المتصلة ببعضها بشكل طولي في اتجاه البر، غير بعيدة عن مدخل ميناء مرسيليا.

يمكنك الوصول إلى هذا المَعْلم عن طريق السيارة أو بواسطة الأدراج إذا كنت ما تزال تحتفظ بقوتك، كما يستعمل المصعد في إحدى جهاتها. ومن على السطح تطل على مدينة مرسيليا كلها. ترى أسطح البنايات المغطاة بالقرميد الأحمر في مجملها. وترى شكل المدينة المقوس بحسب الشكل التضاريسي للساحل، حيث الميناء طبيعي على شكل خليج متسع. كما ترى الجبال المحيطة بمرسيليا من جهاتها الثلاث. وفي أعلى البناية صورة مجسمة لامرأة يقولون إنها لمريم العذراء.

في سنة **1214**م استقبلت ربوة دو لاقارد أول بناء ديني، هو عبارة عن كنيسة أهديت لمريم العذراء. وبمرور القرون توسعت مرات عديدة لتستقبل الوفود الكثيرة من الزوار المتزايد عددهم سنة بعد أخرى. بنيت من قبل المهندس المعماري هنري إسبيراندیو**(Henri Espérandieu)** بأسلوب روماني-بيزنطي. ابتدأت الأشغال سنة **1853** وانتهت سنة **1864**، ومن حملات أشغال الترميم التي تمت فيما بعد نجد ذلك سنتي **2001** و**2008**. وقد تم تصنيف هذا المعلم منذ سنة **1917**.

تشرف العذراء (التمثال) على المدينة كلها، وإليها تنجذب أنظار الناس، إنها " **La bonne mère**". الاسم الشعبي بفرنسا، الذي يطلق عادة على السيدة مريم البتول أم عيسى عليه السلام. تقوم بحراسة المدينة وحمايتها، بحسب معتقدات سكان مرسيليا وبحسب ما جاء في بعض اللوحات المعرفة بهذا المعلم الديني، ويعتبرونها حارسة للبحارة والصيادين.

كانت زيارتي للبناية مساء يوم الثلاثاء **10** ديسمبر **2013**، وقد استعملت الأدراج للصعود نحو المعْلَمِ، كما استعملَتْ امرأتان مسنتان الطريق نفسه، يظهر من قامتهما أنهما تجاوزتا السبعين سنة من عمرهما.

تجد أمامك، عند مدخل البناية لوحة كتب عليها ما يلي: إكراما لذكرى الرائد روني فالانتان **(René Valentin)** الزعيم الباسل الذي استشهد في ساحة الوغى يوم **7** سبتمبر **1944**، وهو على رأس الفيلق الثاني من الفرقة الثالثة للقناصة الجزائريين **2^{eme} Bataillon du 7^{eme} Regiment du tirailleur Algériens;**. دافع لتحرير السيدة دو لا قارد يوم **26** أوت **1944** مع إخوانه في السلاح من: **7^{eme} R.T.A. du 9^{eme} cuirs et des F.F.I.**

4- باب إيكس: يتوسط باب إيكس ساحة جول غسط **(Jules Guesde)**، تحيط به مساحة خضراء، كان في السابق بابا من أبواب السور الذي كان يحمي المدينة، يفتح على الطريق الموصلة إلى مدينة إيكس- أون- بروفانس. لهذا فإن المعلم يدعى اليوم: "باب إيكس."

لكن هذا البناء ليس في الواقع بابا، وإنما هو قوس نصر بُني سنة **1823** على شرف لويس فرنسا**(Duc d'Angoulême)** الذي أجلس على عرش إسبانيا أحد أفراد عائلة البوربون. وهذا المَعلم التاريخي جد مثير بهندسته المعمارية التقليدية، نجدها عموما على هذا النوع من البناء، وهو عبارة عن نحت مبري من هنا وهناك على أطراف القوس استدعي وجود مشاهد عسكرية.

أوضاع المهاجرين الجزائريين: يقطن الكثير من الجزائريين أرض فرنسا، وبخاصة في كل من باريس العاصمة ومرسيليا، الميناء القريب من الساحل الجزائري. جاء الجزائريون كعمال في المصانع ومختلف الأعمال الشاقة، ليغلقوا فراغا أنف منه الفرنسيون كالبناء والعمل في المناجم والأعمال الشاقة.

وكانت الحربان العالميتان أحد أسباب توطن الجزائريين في فرنسا، لما وجدوا من حرية التحرك عكس بلادهم التي يعامل فيها الجزائري بروح عدائية وبنظرة احتقار وامتهان من قبل الأوربيين. ويمكن تقسيم الجزائريين الموجودين في فرنسا اليوم أو المرتبطين بها بشكل أو بآخر، إلى عدة أصناف:

1- المجنسون ولهم راتب محترم ومكانة هامة.

2- غير المجنسين المقيمين بفرنسا، ولهم راتب أقل من المجنسين.

3- الذين عادوا إلى بلدانهم الأصلية، بعد التقاعد، وغيروا عناوينهم، لهم راتب أقل من الاثنين السابقين.

ومن المهاجرين المتقاعدين الذين غادروا فرنسا إلى أوطانهم، صنفان:

- الأول منهما ترك محلا للإقامة في فرنسا تأتيه إليه المراسلات، أو ترك عنوانا لدى أحد الجزائريين هناك. يأتي كل فصل لاستلام أجرته. وفي هذه الحالة قد يكلف شخصا ليطلعه على المراسلات التي تأتيه هاتفيا في أغلب الأحوال. وقد يطلب منه المقابل لهذه الخدمة شهريا، وليس للمتقاعد إلا الرضوخ لهذا الطلب، كي يسوي وضعيته الإدارية والمالية. ومن المهاجرين ممن يرى أن نقل أجرة تقاعده إلى الجزائر هو العمل المناسب للقضاء على معاناته الدائمة.

-والثاني وهو الذي انتقل نهائيا إلى الوطن الأم ونقل معه أجرته، ولم يترك أثرا في فرنسا. ويعاني هذا من بيروقراطية بلادنا الشيء الكثير.

أما العمال الأجراء في المؤسسات الفرنسية اليوم، فيرغب العديد منهم العودة إلى الوطن. لكن الزوجات المولودات في فرنسا ترفضن العودة بعد أن تعَوَّدْن العيش على أسلوب معين لا يمكنهن تركه بكل سهولة. كما أن الأطفال الذين نشئوا هناك واعتادوا الحياة في فرنسا يرفضون هم بدورهم العودة إلى الوطن.

ركب بجواري، وأنا في طريق العودة جوا، مغترب شاب، تناولت الحديث معه حول حياة المهاجرين وحول أوضاع الجزائر. أخبرني أن والده كان مغتربا، ولكنه لم ينقطع عن زيارة الوطن مما جعل أبناءه على اتصال دائم مع الأهل. تزوج ثانية من امرأة فرنسية أنجبت منه ولدا، تزوج من الوطن واستقر فيه، وتقوم أمه، المقيمة في فرنسا، بزيارته من حين لآخر. أما هو، أي الابن الآخر، فقد تزوج من مغتربة لا تريد الذهاب إلى الجزائر، رغم رغبته هو في العودة، وها هو ذاهب إلى الجزائر لزيارة أمه المريضة. ويبقى المهاجر متعلقا بوطنه على الدوام دون أن يتمكن من تحقيق رغبته في العودة مع مرور السنين.

يتابع المهاجرون تطورات الوضع في بلدهم، فيجلسون أمام قناة التلفزة الجزائرية مساء يستقون منها أخبار الوطن، يجلسون فرادى أو جماعات، يعلقون على الأحداث وعلى المسئولين، أما في المطاعم والمقاهي فقناة الجزيرة هي المفضلة، والتي يستقون منها أخبار البلاد العربية، وبخاصة أحداث مصر بعد توقيف الرئيس محمد مرسي ومتابعة الإخوان، إلى جانب أحداث سوريا وما يجري فيها من حرب بين الإخوة الفرقاء.

بين عالمين وحضارتين: بمجرد دخولك الأراضي الفرنسية تحس بذلك الفارق الكبير بين بلد متحضر يمارس الحضارة في كل شبر من حياته، وبلد متخلف فقد حضارته، وهو في ضياع لا يعلم نهايته إلا الخالق سبحانه وتعالى. وأول فرق بين العالمين هو المعاملة. إن أول ما يبادرك الآخر هو حسن السلوك والكلمة الطيبة، يمر أمامك دون قصد فيطلب منك المعذرة، وحين يراك سائقُ السيارة تود قطع الطريق في غير محله يتوقف ويطلب منك المرور آمنا مطمئنا. تدخل مكتبا فيسبقك بالتحية إن لم تفعل. ويشكرك حتى وإن كنت أنت المستفيد. وإذا رآك مستعجلا ترك لك المكان. أحياؤهم نظيفة، موظفو مكاتبهم بَشوشون. يحترم الناسُ هناك دَورَهم في الطابور، ولا يأخذون مكان غيرهم أبدا.

قال لي أحد الجزائريين المقيمين في مرسيليا: إنكم تقولون عنا مغتربين، لكن الواقع أنكم، سكان بلادنا، أنتم المغتربون، كيف ذلك؟ تطلبون وثيقة فتعانون الأمَرَّيْن للحصول عليها، ولتستخرجوها يُطلب منكم تكوين ملف طويل عريض، ومع ذلك تنتظرون الأيام والشهور للحصول على تلك الوثيقة. أما نحن، يقول الجزائري ساكن مرسيليا، فتُقضى مصالحنا بسهولة، وتعطى لنا حقوقنا قبل أن نطلبها، وعندما نحتاج إلى وثيقة لا ننتظر سوى دقائق معدودة، حقوقنا محفوظة، والإدارة هي التي تخبرنا بذلك، وتسلم لنا كل مستحقاتنا حتى وإن لم نطلبها،[30] فنحن إذن لسنا مغتربين ولا غرباء.

صدَّقتُ مُكلمي كل التصديق، لأنه عاش هنا وهناك، ورأى بأم عينيه الفارق بيننا. فما نحن سوى عالم ثالث أو رابع، حَدِّث عنا ولا حرج، ولا مجال للمقارنة. نتسرع في قضاء حوائجنا على حساب بعضنا البعض، ونغضب بشدة إذا أخطأ غيرنا. ونكلف بعضنا البعض ما لا يطاق، وديننا يقول: "إذا أردت أن تطاع فامُرْ بما يُستطاع." ونفرح عندما نرى غيرنا يعاني في الحصول على حقه، وإذا أدَّينا له أحد حقوقه اعتبرنا ذلك معروفا منا، وننتظر منه الشكر والجزاء، بينما يعتبر ذلك جزءا من عملنا الذي نتقاضى أجرنا من أجله. وتدهورت العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتدهورت مصداقية الدولة بعد أن غابت المعايير العقلانية والأخلاقية.

ونَسْخر من الذي يحترم القانون، ومن الرجل المتخلق السوي، إذ نعتبرهما ساذجين، وبذلك نشجع الخروج على القانون وعدم الالتزام بالأخلاق السامية، وبذلك تأخرنا وتقدموا. قال شاعرنا أحمد شوقي قديما: إنما الأمَمُ الأخْلاقُ ما بَقِيَتْ فإن هُمُو ذهَبَتْ أخْلاقهُمْ ذهَبُوا.

ومن المفارقات في بلدهم ما رأيته عياني في مرسيليا. فقد وضَعَت سلطات المدينة أماكن لعرض السلع في أسواق محددة وبنظام سليم، لكن أهلنا هناك خرجوا عن ذلك النظام، بخلق فضاء مواز وغير محدود المساحة للبيع في سلع قد أكل الدهر عليها وشرب.

ففي سوق (Marché Plus) بمرسيليا ينتظم الباعة في مكان محدد معروف. فيأتي بعض إخواننا ويضعون خردواتهم على الأرصفة، ويتحول رصيف الراجلين إلى سوق مفتوحة يوم الأحد. يضيق السير في الرصيف، ويمتد الباعة الفوضويون على مسافة يصعب تحديد نهايتها، قلت لأحد عمال الفندق، وهو رجل مثقف، كيف يُترك هؤلاء يشوهون المكان بتلك الخردوات وعلى أرصفة الشارع، فرد علي قائلا: لقد حاولت الشرطة ذلك مرارا وتكرارا، لكنهم غلبوها، ومَثل لي الأمر بالمثل الشعبي القائل: "السامَطْ غلبْ القْبيحْ."[31] فقد غلبوا الشرطة بإصرارهم وعنادهم حتى يئس هؤلاء وانسحبوا صاغرين.

ويتأسف الراوي، سابق الذكر، على الحالة التي وصل إليها بعض الجزائريين في فرنسا، الذين تخلوا عن كل مَحْمَدة، وراحوا وراء شهوات آنية دنيئة. وهو غير راض على السلوك الطائش لبعض الشباب الجزائري هناك، تجاه البلد المضيف لهم، فهناك العنف والمخدرات والتسكع والبطالة.

فيا ليت قومي أصروا على أمور أخرى كالجد في العمل والمواظبة وإجادة الشغل، لو فعلنا هذا لخرجنا مما نحن فيه من ذلة وهوان أمام أنظار العالم. نملك ولا نحسن التصرف، أغنياء ولكننا فقراء بأموالنا. وإذا صرفناها غيّرنا وُجهتها نحو جيوبنا، وحَوَّلناها إلى بنوكهم كي يزدادوا هم غنى ونزداد نحن فقرا. شبابنا عاطل عن العمل المنتج، منهم من استفاد من مساعدة الدولة كالقروض وما قبل التشغيل وغير ذلك من الوسائل المهدئة، ومنهم من لم يجد يدا تخرجه من اليأس والقنوط والتيَهان.

وباختصار أخلاقهم حسنة وأخلاقنا سيئة، سلوكهم سوي وسلوكنا أنانية وغنجهية. أين نحن مما يدعونا إليه ديننا الحنيف؟ "كُنْتُمْ خَيْرَ أمَّةٍ أخرِجَتْ لِلناسِ تأمُرونَ بالمَعْرُوفِ وَتنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ..."[32] أو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "رحم الله امرأ عمل عملا فأتقنه." وخير الناس أنفعهم للناس: "أرحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء." وقوله سبحانه وتعالى: "يا أيّهَا الناسُ إنا خَلقناكُمْ مِن ذكَرٍ وَأنثى وجَعَلناكُمْ شُعوباً وقبَائِلَ لِتعَارَفُوا، إن أكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أتْقاكُمْ..."[33] ولكن لا حياة لمن

تنادي، حياتنا تزداد سوءا، والخوف كل الخوف على مستقبل البلاد التي ضحى من أجلها الملايين على مر السنين.

في طريق العودة إلى الوطن: في اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر كنت على موعد مع طائرة الخطوط الجوية الجزائرية للعودة إلى الوطن (وهران). قمت باكرا فأعددت أمتعتي وخرجت على الساعة السابعة صباحا من النزل الذي كنت أقيم فيه، وبعد عشر دقائق وصلتُ إلى محطة الحافلات، دفعت ثمن التذكرة في الشباك، وركبت الحافلة. كل شيء يسير هنا بانضباط، يتقدم منك مساعد السائق فيحمل عنك أمتعتك ليضعها في مكانها من الحافلة، وعندما تركب تمرر تذكرتك على جهاز تجده عند مدخل الحافلة، فيُحدِثُ الجهاز صوتا معينا، وهذا يعني أن التذكرة مقبولة، ثم تجلس في مكانك. وبعد 25 دقيقة كنا في المطار.

افتتحت شبابيك التسجيلات، فقصدت الشباك الخاص باتجاه وهران، دفعت جواز السفر والتذكرة لتسلم لي ورقة الدخول (Fiche d'embarquement). دفعت أمتعتي لتُحمل مع بقية أمتعة الركاب، وضع الموظف ملصقات، عليها اسمي ورقم الرحلة ودفعها عبر ممر يوجهها نحو المكان الذي تؤخذ منه نحو الطائرة المعنية. دخلت قاعة المراقبة عبر مسالك ملتوية حلزونية، يتم المرور بها للمراقبة شخصا بعد شخص.

عندما يصل دورك عليك أن تنزع معطفك والساعة وقطع النقود والهاتف النقال وحتى الطربوش إن وُجِدَ، والحذاءُ أيضا، ليمر كل هذا أمام جهاز خاص. أما صاحب هذه الأمتعة فله جهاز مراقبة آخر، عليه أن يمر دون أن يحدث الجهاز صوتا، لأن ذلك يعني أن لديه وسيلة معدنية، قد تكون قطعا نقدية نسيها أو حزاما... ليجد المسافر بعد ذلك نفسه أمام الشرطي الذي يقوم بتفتيشه من مختلف أطرافه، بيديه صعودا ونزولا، يمنة ويسرة، فيا لها من مراقبة دقيقة!

تأخرت الطائرة حوالي نصف ساعة عن موعدها المقرر، ثم أقلعَت في اتجاه مدينة وهران، وبعد ساعة ونصف من الطيران، ها نحن نزل في مطار أحمد بن بلة الدولي بوهران. ما أجمل الوطن وما أسعدنا به، فيه يستريح المرء ويحس بالطمأنينة. فيه الأهل وحياة الطفولة، فيه الناس الذين عَهِدنا رؤيتهم والأرض الطيبة التي تفتح ذراعيها لتضمنا بين جَنباتها مرحبة. إنها أرض الآباء والأجداد الذين سقوها بدمائهم، وشقوا ترابها بأذرعهم وحموها من كل غاصب.

الهوامش:

1- عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، دار المدار الإسلامي، بيروت، **2005**، ص:**.73**

2- من أجل دفع ملف التأشيرة يجب الحصول على موعد لذلك عن طريق هاتف يسلم لطالب التأشيرة. ويحدَّدُ لك الموعد لمدة لا تقل عن شهرين: هاتفتهم في شهر أوت **2013** ليحدد لي الموعد يوم **28** أكتوبر من السنة نفسها بعد أن أعلمتهم أنني أستاذ جامعي، ولدي رسالة استقبال من إحدى المؤسسات العلمية الفرنسية.

3 - United Parcel Service. Prestataire de services agréé.

4- المثال كالتالي: دفعت ملف طلب التأشيرة يوم **28** أكتوبر، كما ذكرت سابقا، راسلت القنصلية مستفسرا بعد مدة، فكان الرد كالتالي: عالجنا ملفك وحولناه إلى وكالة **(UPS)** يوم **19** نوفمبر، لكني لم أستلمه من هذه الأخيرة سوى يوم الأربعاء **27** نوفمبر، بعد تردد عليهم يومي **25** و**26** من الشهر نفسه.

5- منها: عند الخروج من قاعة مطار مرسيليا، خذ الجانب الأيمن لتجد حافلة مرسيليا، ادفع ثمانية أورو في الشباك المقابل لموقف الحافلة، واستقلها بعد إذن السائق -حيث لا يسمح بالركوب إلا عند حلول وقت الإقلاع- تصل الحافلة بجانب محطة القطار بوسط المدينة، أدخل قاعة المحطة، ثم أخرج من الباب المقابل عن طريق الأدراج. اقطع الطريق واذهب مباشرة في الطريق المنحدر من المحطة لتصل إلى الباب الأثري المدعو "باب إيكس"، غير بعيد عنه توجد لافتة **(Hotel)** بدون اسم، إنه نزل **(Gallieni)**. أما الذهاب إلى مركز الأرشيف فيتم عن طريق حافلة: مرسيليا-إيكس، التي تقف إلى جوار موقف حافلة المطار تماما، أي بالقرب من محطة القطار. ثمن الركوب من مرسيليا إلى إيكس خمسة أورو وأربعين سنتيما، لكن هناك حل بديل يتمثل في الاشتراك لمدة أسبوع بقيمة **17,80** أورو، أفضل من التسعيرة السابقة عن كل رحلة.

6- كانوا في السابق لا يسمحون للباحث أن يدخل معه شيئا سوى الأوراق البيضاء وقلم الرصاص.

7- كان الجزائري، قبل التواجد الفرنسي سنة **1830**، يعرف باسمه الشخصي واسم والده، وينسب إلى مدينته أو قبيلته، ولم يكن هناك ما يعرف اليوم باللقب العائلي. مثل: محمد بن أحمد التلمساني.

8- le 30 septembre 1985. Association loi de 1901. Reconnue d'utilité publique

9- خصص العدد **54**، الصادر في السداسي الثاني من سنة **2013** لـ "يهود الجزائر"، والذي سلمت لنا نسخة منه عند زيارتنا للمركز في **5-12-2013.**

10- Fr.wikipedia.org

11- شهادة الأستاذ عبد القادر صحراوي من جامعة جيلالي اليابس بسيدي بلعباس، الذي زار المكان في السنوات الأخيرة، وقد استفاد منها في أحد بحوثه حول الطريقة التجانية في العهد العثماني بالجزائر، المقابلة في وهران يوم **19-12-2013.**

12- تتمثل أحداث **11** سبتمبر **2001** في مجموعة من الهجمات شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية يوم الثلاثاء، تم فيها تحويل أربع طائرات نقل مدني تجارية، وتوجيهها لتصطدم بأهداف معينة: في برجي مركز التجارة الدولي بمنهاتن، ومقر وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون)، ذهب ضحيتها **2973** قتيل و**24** مفقودا وآلاف الجرحى والمصابين بأمراض جراء استنشاق دخان الحرائق والأبخرة السامة، وقد نسبت العملية للقاعدة بزعامة أسامة بن لادن.

13- تم احتلال أفغانستان ابتداء من **7** أكتوبر **2001** من قبل الجيش الأمريكي والجيش البريطاني كرد فعل على هجمات **11** سبتمبر **2001**، باعتبار أن نظام طالبان الحاكم في أفغانستان يدعم القاعدة ويضمن لها الملاذ الآمن. وتم احتلال العراق في ما يسمى بحرب العراق أو حرب الخليج الثالثة ابتداء من **20** مارس **2003** من قبل دول متحالفة تقودها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وأستراليا. ويسميها البعض "حرب بوش." وانتهت الحرب رسميا في **15** ديسمبر **2011** بإنزال العلم الأمريكي في بغداد. جاء الغزو بدعوى امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل (السلاح النووي) والذي ثبت انعدامه بعد الغزو.

14-استقر أول المهاجرين العرب خلال الحروب التي نشبت عقب وفاة الرسول صلى عليه وسلم، سنة 632م وفي عهد الخلفاء من بعده. وفي القرن 10 و11 ميلادي جاء تجار عرب من الساحل الشرقي لإفريقيا وزنجبار وأسسوا مستعمرات في الساحل الغربي لمدغشقر وكانوا مسلمين سنيين. (Wekipedia.org)

15-www.4icu.org Top Universities in Madagascar

16- على جوانب الرزنامة توجيهات إسلامية في مختلف نواحي الحياة اليومية من عبادات ومعاملات، استنادا إلى آيات وأحاديث نبوية باللغة الفرنسية. منها على سبيل المثال: كيف نعتنق الإسلام؟ يكون بإعلان الشهادة... وليس عن طريق الغُسْل أو عن طريق الختان أو بتعلم اللغة العربية أو بأشياء أخرى من التي يقوم بها العديد من الأفراد جهلا بالأمر.

17-Association des projets de bienfaisance Islamiques en France.

18- (ar.wikipedia.org عيد الميلاد - الموسوعة الحرة.)

19-http://fr.wikipedia.org/wiki/Histoire_d%27Aix-en-Provence

20- جوزيف رينو، الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسوسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي، تعريب وتعليق الحواشي إسماعيل العربي، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص: 99.

21- جوزيف رينو، المرجع السابق، ص: 137.

22- جوزيف رين، المرجع السابق، ص: 140.

23- جوزيفرينو، المرجع السابق، ص: 159.

24- لا مارسييز: هي النشيد الوطني الفرنسي، تم ترسيمه في 14 جويلية 1795. وتوقف العمل به ابتداء من سنة 1804. ثم استؤنف العمل به سنة 1830 خلال الثورة التي رفعت لوي فليب إلى السلطة. كتب كلماتها:

Claude Joseph Rouget de Lisle بين ليلتي 25 و26 أبريل 1792.

25-www.ikipedia.org

26-www.aixenprovencetourism.com
www.Marseille.fr Site officiel de la ville de Marseille.
www.aixenprovencetourism.com

27- زرت المتحف يوم الاثنين 9-12-2013 مساء عن طريق الجسر الحديدي من أعلى هذه القلعة، وخرجت من أسفلها لأجد نفسي على رصيف الميناء القديم.

28-لاحظت عند زيارتي لهذا المَعْلم صبيحة الثلاثاء 10 ديسمبر 2013 أن هناك من يستغل فراغ المكان ليقوم بحركات رياضية وآخر يستغله للعدو بين الأشجار.

-Elle est situé à Marseille, entre les quartiers du Roucas blanc, d'eudoume et de Vauban, 29 sur un piton calcaire de 149 mètres d'altitude. C'est une des basiliques mineurs de l'église catholique romaine.

30- سامي عامل بنزل غاليني بمرسيليا.

31- السامَطْ: بالعامية الجزائرية هو الرجل الكثير التردد والإصرار على الأمر دون ملل حتى يحصل عليه. والقبيح: هو العصبي الذي يترك الشيء بسرعة وببساطة لعدم تحمله وقلة صبره.

32- سورة آل عمران، الآية: 110.

33- سورة الحجرات، الآية: 13.